



# أخطاء الفلاسفة المادية

أنور الجندى

دار الأحياء



# أَخْطَاؤُ الْفَلَسْفَةِ الْمَادِّيَّةِ

أنور الجندى

دار الأحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ان اخطر ما يحاول دعاة التغريب والمانيون واصحاب  
الفلسفات أن يقولوا انهم انما يصدرون فيما يقولون به  
من نظريات وايدولوجيات ومذاهب عن أساس عملى لا يقبل  
النقض ونحن نعلم أن هناك فارقا بعيدا جدا بين العلم  
وبين الفلسفة وبين معطيات العلم التجريبي القائمة على  
البحث والتجربة على النحو الذى يتم داخل المعامل وبين  
الفرضيات التى لم تؤكدھا التجربة بعد . أو التى قال بها  
العلم فى مرحلة ما ثم جاءت تجارب أخرى غيرت هذه  
المسلّمات وتخطتها ، ذلك أن الخطأ والخطأ انما يجرى نتيجة  
تبنى الفلسفات لبعض مؤثرات العلم أو نظرياته ونقلها  
من مجال العلم التجريبي أو من مجال الدراسات البيولوجية  
ودراسات الطبيعة الى مجال المفاهيم الانسانية وقضايا  
النفس والاجتماع والأخلاق . بينما لا تصلح أساليب العلم  
التجريبي فى التطبيق على شئون الانسانيات من نفس واجتماع  
وأخلاق ، هذه التى يجب أن تدرس وفق منهج آخر  
غير مناهج العلوم المادية .

إذا اتضح هذا المعنى أمكن النظر فى سهولة ويسر  
الى ذلك الحشد المتعدد من المصطلحات والمفاهيم التى تختلط  
بين العلم وبين الفلسفة ، أما فى مجال العلم فهى تدرس  
دراسة خالصة ، وأما فى مجال الفلسفة فانها تخضع لكثير  
من الأهواء والدوافع .

وقد ظهرت نظريات متعددة في مجال العلم البيولوجي  
ثم لم تلبث أن نقلت الى مجال العلوم الاجتماعية كحقائق  
مسلمة ومن ذلك مفهوم التطور ومفهوم تنازع البقاء وقد تبين  
من بعد أن تقبل هذه الفرضيات ليس سليما على اطلاقه  
وأن تطبيقه في المجال الاجتماعي ليس صحيحا دائما .

ومن العجب أن النظرية المادية قامت من بعدها النظرية  
الماركسية على فرضية كشفت أبحاث العلم من بعد خطأها ،  
قامت النظرية المادية وكذلك الماركسية على أساس القول  
بأن الحياة كلها من عقلية ونفسية وسلوكية صادرة من مادة  
عضوية ، وهذه الفرضية لا تعد الآن من الحقائق العلمية  
ومعنى هذا أن أساس الفلسفة المادية والنظرية الماركسية  
قد انهار من الأساس . كذلك فإن القول بالتطور المطلق  
الذي جعله هيربرت سبنسر مفهوما اجتماعيا قد سقط نتيجة  
لمفهوم آخر أصلح منه هو مفهوم الثوابت والمتغيرات كذلك  
فإن فكرة الجوهر الفرد التي قامت عليها الفلسفات سقطت  
بنظرية النسبية وظهور مفهوم الطاقة التي تتحول الى مادة  
والمادة التي تتحول الى طاقة ، كذلك فإن نظرية النسبية  
نقلت الى المجال الاجتماعي القول بنسبية الأخلاق وارتباط  
القيم الأخلاقية بالمجتمعات والعصور وهذه النظرية وجدت  
معارضة شديدة لأنها تخالف الفطرة وطبائع الأشياء .  
كذلك فإن نظرية الجبرية التي حاولت بعض المذاهب تطبيقها  
على التاريخ والحضارات والمجتمع قد تبين فسادها لأنها تلغى  
التزام الأفراد ومسئوليتهم وتلغى ارادتهم بينما التاريخ كله  
من عمل الأفراد .

وكذلك تبين خطأ القول بتنازع البقاء وتبين أن تعاون

الكائنات أظهر وأقوى وأكبر أثرا من تنازعها . وأن نظرية تنازع البقاء إنما ظهرت نتيجة ملاحظة محدودة لاجتماع محدود .

ويرجع هذا كله الى منطلق الفكر الغربى أو الفلسفة الغربية الذى يقصر النظرة على المادة وحدها بينما ينطلق الفكر الإسلامى الى آفاق أرحب وإلى نظرة لها أبعاد أكثر وضوحا وقوة .

فالفكر الإسلامى يؤمن بأن الثبات والتغير من القوانين الطبيعية فى حياة البشرية والانسان وفى تكون نفسه . وأن هناك أفلاكا ثابتة وكواكب متحركة . وأن لكل شىء اطارا لا يتغير وإنما تتغير الحركة فى داخله .

فالانسان فى صورة خلقه وفى حياته يتحرك داخل اطار واضح محدود منذ الولادة الى الوفاة ، وقد تتغير الأساليب والملابس والوسائل ولكن تبقى القواعد الأساسية ثابتة ، النوم واليقظة ، والسكون والحركة ، والطعام والشراب ، هناك قيم ثابتة ولكن أساليب العمل بها تتغير وتتطور من عصر الى عصر ومن بيئة الى بيئة حسب الظروف والحاجات .

والانسان يتغير دائما من حيث الحركة ولكن له اطاره الثابت من حيث أصول الحياة والفكر وأصول البقاء .

وكذلك فإن الانسان يتحرك فى الحياة فى اطار من القيم والتعاليم والضوابط والحدود . ويخضع لقوانين الأخلاق

والتعامل بما يتكامل معه مع مسيرة المجتمع كله ، أخذا وعطاء ، وحيث تنتهى حريته عندما تبدأ حرية الآخرين .

ومن هنا فان مفهوم الاسلام يقوم على أساس ثبات القيم الأخلاقية والآداب الانسانية التى هى من أصول ثبات الطبيعة البشرية وفيما عدا ذلك فان هناك تغيرا وتبديلا وتطورا دونما انقطاع ، هذه القيم الثابتة من الدين والأخلاق والحدود والضوابط هى التى تقى المجتمع الانسانى من الفناء والهلاك ، وهى القانون الثابت الذى لا يتغير مع تغير العناصر المختلفة فى المجتمع .

وهكذا نجد ثوابت الكون فى الطبيعة وثوابت الأخلاق فى الانسان ومتغيرات الكون ومتغيرات الانسان ، وكأئنا نظام السلوك الانسانى مطابق لواقع النظام الكونى .

وثبات السنن الالهية فى الكون والانسان هو اطار حركة المتغيرات ولقد كان الفكر الغربى فى مرحلته اليونانية يؤمن بالثبات المطلق ، ثم جاء هيجل فنقله الى التطور المطلق . وكلاهما صدر عن نقص فى النظرة وعجز عن استقصاء الأبعاد المختلفة التى جاء الدين الحق ليكشف عنها للانسان وليدله عليها وليجعل فكره اكثر رقىا واعمق فهما .

ومن هنا فان الفكر الغربى هو فكر انشطارى يمر اليوم بمرحلة التطور المطلق الذى لا يتوقف عند حد والذى يجرى فى غير اطار من الثوابت ومن ثم يتعرض لكثير من المعاطب والأخطار .

أما الفكر الاسلامى فهو فكر متكامل جامع ، يربط بين القيم فى توازن رقيق وتناسق معجز ، فالحياة يقابلها الموت والفقر يقابله الغنى والجبن يقابه الشجاعة والروح يقابلها المادة ، والكون كله ثنائيات متلاقية فيه ، ليس فيه واحد لا ثنائية له ولا تعدد الا الله تبارك وتعالى ، ومن شأن هذا الفهم أن يعالج أزمة الفكر الغربى التى تقوم على الصراع والتناقضات ، ذلك أن المفهوم الكامل من شأنه أن يقضى على المتناقضات ويذيب الصراعات .

فليس وجود الأضداد دليلا على خصومتها وتعارضها ولكنه سبيل الى تكاملها والتقاءها فالضد يولد من الضد ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . ذلك أن النور يكشف الظلام والحق ينسف الباطل .

أما الفكر الغربى الذى اثر فكرة التطور المطلق وحجب فكرة الاطر الثابتة فقد عجز عن فهم هذا الالتقاء وعده صراعا ، وتناقضات .

أما الاسلام فقد وفق بين المتناقضات فى اطار التكامل وعلى قاعدة التوازن وليس فى هذا ما يوصف بأنه ازدواجية بل هو التكامل الذى يوفق بين الأضداد والمتناقضات ويسلكها فى طريق الحركة الطبيعية .

ولقد يعجز الفكر الغربى عن فهم التكامل والالتقاء بينما هو طبيعة طيبة للفكر الاسلامى الذى يقوم على التكامل بين الزمنى والروحى والمطلق والنسبى والالنهائى والمحدود .

ومن هنا يمكن القول بلغة الفلاسفة أن الاسلام يجمع بين المنطق الشكلى والمنطق الجدائى بين منطق أرسطو القائل بثبات الموجودات ومنطق هيجل القائل بتغير الموجودات الدائم . وبذلك يقيم قانون « الثوابت والمتغيرات » فالاسلام يجمع بين الأصول العقائدية الثابتة وبين الاجتهاد فى الفروع والتفاصيل والتطبيقات ( وهو ما نسميه التطور ) ويقول بتغير الأحكام النوعية مع تغير الأرمنة والأمكنة وهو ما يسميه الفقهاء اختلاف زمان ومكان لا اختلاف حجة وبرهان ذلك أن الاسلام منهج الهى من حيث الأصول ، ووضعى بشرى من حيث التطبيق والتفاصيل ، أصول الهية على أساس التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة فهو لا يمتحق الفرد لصالح الجماعة ولا يسحق الجماعة لصالح الفرد فاذا استحال التوفيق اختار الاسلام المصلحة الجماعية ، وهذا هو التوازن الدقيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . ومعنى هذا أنه لا انفصال بين ما هو مادى وما هو روحى فى الاسلام ، ومنهج الاسلام أصول الهية وتفسيرات بشرية وعن طريق هذا المفهوم لا يجد المسلم ذلك القلق الفلسفى الواسع الذى يشغل الباحثين حول : التناقض والصراع والجبرية وتنازع البقاء .



## فساد نظرية الجبرية

الى اى حد يمكن ان يصل بالحضارة الغربية وبالفكر الغربى ذلك التصور الذى يجتاح العصر كله ويحاول ان يلقى بظله على الفكر الاسلامى ويجد من المثقفين العرب من يتبناه ويردده : هذا الفهم الخطير للجبرية والحتمية الذى يستمد منطلقه من الفلسفة المادية والذى يذهب بعيدا ليكون عاملا خطيرا فى تصرف الانسان وسلوكه ، وما هى صلة ذلك كله بنظرية الخطيئة الاولى فى الفكر الغربى المسيحى ، وعلاقته بالوجودية وبالأدب وبالأخلاق .

لنستعرض هذا النص الذى يمثل وجهة نظر عامة الآن بين كتاب الغرب لنرى معه الى اى حد نستطيع ان نفهم الموقف: النص للكاتب الغربى الأمريكى « ماكسين جرين » يرى الانسان الحديث أنه وليد قوى اجتماعية واقتصادية وبيولوجية تحدد دوره فى الأرض دون أن يشعر هو نفسه على الإطلاق . ان فقدان الانسان لكرامته واعتزازه بنفسه يرجع الى التقدم العلمى الضخم فى القرن التاسع عشر الى أمثال دارون وهكسلى وماركس الذين أظهروا الانسان فريسة لقوى ضخمة مظلمة لا سلطان له عليها ، وهكذا وجد

التفكير الجبرى وظهر هذا التفكير فى الأدب فى أعمال أصحاب المذهب الطبيعى فى كل بلد هؤلاء الذين حلوا محل الأنطال لشاعرين بذواتهم مخلوقات سلبية مطاوعة أنتجتها قوى الوراثة والبيئة لا صلة لهم بها بل لا وعى لهم بها وقد اختفت بطولة الانسان بفضل المذهب انطبيعى « هذا النص يتحدث عن « جبرية القوانين الطبيعية » وخضوع الانسان لها : هذه تريد أن تفرض وجودها على الفكر الغربى كله : ليس الفكر الماركسى وحده ولكن الفكر الليبرالى أيضا ، فقد تغيرت الجذور القديمة التى كانت تستمد من الفلسفات المثالية وغيرها رؤية تتمثل فيها ارادة الانسان وساد الفكر الغربى اليوم قنām كامل ترتبط فيه كل المذاهب بهذه الجبرية والحتمية . سواء فى دراسات علماء النفس ، أو علماء الاقتصاد ، أو علماء الاجتماع ، أو علماء التاريخ أو فى مذاهب الأدب والفن والشعر والمسرح والقصة ... الخ .

هذا التحول الخطير أساسه المذهب المادى الذى يعد الآن بمثابة القاعدة الأساسية للاتجاهين المختلفين فى الفكر الغربى : ليبرالى وماركسى ، فردى واجتماعى ، أدبى وعلمى . وهذا هو أبرز وجوه الخلاف اليوم بين الفكر الاسلامى وبين هذا الفكر جملة .

فاذا ذهبنا نستقصى المصدر الأول لفكرة الحتمية أو الجبرية وجدناها فى تلك القوانين التى اكتشفها الانسان للكون عن طريق العلم الحديث ، دون معرفة مصدر هذه القوانين ، والاعتقاد بأنها قوانين طبيعية حيث تدبر الطبيعة نفسها فهى لا تتخلف . وفى هذا الاعتقاد خطأ أكبر وخطأ أصغر . أما الخطأ الأكبر فانه من المستحيل أن تدبر الطبيعة

نفسها بمثل هذه الدقة لأنها لم تخلق نفسها ولا بد لها من خالق أساسا ثم هو نفسه نبارك وتعالى الذى يديرها لحظة بعد أخرى . ومن هنا فان هذه القوانين مخلوقة لله تعالى وهو القادر على ابطالها . غياب هذا الفهم عند الفكر المادى جعل النظرية قائمة على شق واحد منها هو حتمية هذه القوانين واغفال الجانب الهام منها وهو صانعها ومديرها والقادر على ابطالها .

ومن هنا يصور العلماء الحتمية بأنها : هى خضوع الأشياء لمبدأ التغيير للقوانين الضرورية وهذا يعنى ان الأحداث تترابط فيما بينها وفق قوانين موضوعية ومن هنا فان الحتمية هى انكارها المصادفة والاحتمال وحرية الارادة وأخطر ما فى الحتمية هى انكارها حرية الارادة ، ذلك أن الحتمية لا تتفق مع ارادة التغيير ، ومن هنا فهى تعطل هذا الجانب الهام الذى هو مصدر أصيل فى انشاء التاريخ وتلغى دور الانسان فى التغيير .

وهى فى هذا تخالف الانسان من جانبين : من جانب عجزها عن فهم قدرة الله المطلقة وقدرته على خرق القوانين وتغيير الواقع وقصورها عن فهم ارادة الانسان التى منحها الله اياه ، داخل الارادة العليا للكون كله .

والفارق يسير جدا فهو فى نظر المسلم أن العوامل الظاهرة للحدث أو للقانون ليست هى وحدها العوامل الحقيقية ، وأن هناك عوامل أخرى تخفى وهى من ارادة الله ومشيئته التى هى أكبر من الأسباب نفسها ، والقادرة على تعطيل الأسباب أو امضاء الأسباب من غير أن تحقق النتائج المترتبة

عليها . ونحن نطلق خطأ على هذا الجانب المجهول من قدرة الله والذي لا يخضع للقوانين الظاهرة : المصادفات والاحتمالات والظواهر غير المنظورة تقريبا للأمور . والواقع أن الحتمية تقوم على نظرية مادية خالصة .

أما الانسان فله دوره وارادته الذاتية التى تحقق له التصرف الذى به يكون مسئولا عن عمله ، فى دائرة صغيرة ولكنها بعيدة الأثر فى احداث التغيير .

**« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » .**

والفرد يستطيع ان يمارس ارادته فى تغيير الواقع والمجتمع بقدر استفادته من قوانين الحركة .

والانسان له ارادة فاعلة وهى جزء من ارادة الله يتميز بها عن الحيوان وهو يتحرك فى دائرة خاصة ويكون مسئولا فى حدودها ، ولكنها لا تمثل الا شطرا يسيرا من ارادة الله الكبرى التى تخلق التأثيرات العامة للمجتمعات والأكوان أما الحتمية فهى لا تتفق مع ارادة التغيير ، لأن الحتمية تفترض أنه لا ارادة من جانب الانسان ، وهى بذلك تعد الانسان متفرجا ازاء حركة التاريخ يرى ما يحدث له وللمجتمع دون ان يشارك فيه وهذا القول مخالف للواقع ولطبائع الأشياء .

ومن هنا فان القول الذى يردده جبريو التاريخ كماركس والذى يقول ان التاريخ محكوم المسار فى مستقبله فهو غير صحيح وكل النبوءات التى قدمها ماركس فى هذا الصدد قد تبين كذبها ولم تتحقق — جميعا — وما وقع فى المستقبل بعد تنبؤات ماركس كان مخالفا تماما لما قرره بناء على حتمية

التاريخ أو جبريته في حدود النظرية التي قدمها ، ذلك لأن ماركس ليس الا بشرا يعجز عن الاحاطة ونظريته ليست الا شطيرة ترتبط بعنصر واحد من عناصر التأثير وهى الاقتصاد وتقوم في مرحلة زمنية محدودة وبيئة لها طابع خاص ومن هنا فقد عجز وعجزت عن تفسير المستقبل فضلا عن اخفاق ماركس في تحليل التاريخ القديم .

ولا ريب أن النموذج البشرى الذى تقوم عليه فكرة الجبرية هو نموذج انسان سلبي خامل كسول ، مستسلم للواقع ، متنازل عن حقه الطبيعى في الاختيار مؤثرا للأمان والجبن وعدم المجازفة وبذلك يفترض في هذا الانسان أنه تطبيق للحتمية المادية الخادعة الكاذبة .

والمسلم لا يقر هذا المفهوم ، السلبي ، ويؤمن بالارادة ، وبالقدرة على الاختيار والحركة لتغيير الواقع ، ويجعل من ارادته البشرية قوة قادرة على حكم الغرائز وقيادتها والسيطرة عليها .

وهذا هو السر في دعوة الاسلام الملحة لبناء الارادة .

وكذلك الأمم فانها حين تخضع للجبرية تموت ، لأنها تستسلم وتداس بالأقدام ، أقدام الغزاة والغاصبين ، والارادة والاختيار هما عاملا التغيير في الفرد وفي الجماعات والأمم ، وبقوانين هذه الارادة تقوم الأمم وتتجدد ، ولا ريب أن التقدم مرتبط بتنمية ارادة التغيير ، فاذا فقدت الأمة هذه الارادة ، استسلمت للجبرية التي هى الانحطاط .

ولا ريب أن تفشى هذا المفهوم في الفكر الغربى في هذه

المرحلة من انهيار الحضارة هو علامة على مرحلة سقوطها الذى تنبأ به كثير من الباحثين ، والذى هو سمة كل الحضارات والأمم التى تستسلم للجبرية الممثلة فى الترف والانحلال والفساد والاباحية .

وكما يرفض الاسلام الجبرية التى تجعل الانسان متفرجا على التاريخ ، كذلك فان العلم يرفض الجبرية ولا يراها حقيقة أساسية . وكل ما يقال عن أن الجبرية الحتمية هى علم فهو من قبيل الخداع : فالعلم لا علاقة له بهذه الأبحاث التى هى من شأن الفلسفة وإنما هم أطلقوا عليها كلمة فلسفة العلم لأنهم حاولوا أن يستمدوا مفهوم المادية من بعض نظريات العلم التى كانت فى القرن التاسع عشر تتول بانبثاق هذا الكون بدون صانع وقد سقطت هذه النظرية التى قامت على أساسها مذاهب سياسية واجتماعية كثيرة كالماركسية والوجودية والبرجماتية مثلا . ولقد تقدم العلم الآن تقدما عجيبا والغى كثيرا من النظريات العلمية التى لم تكن فى واقع الأمر الا « فرضا » لتغطية الجوانب الناقصة فى عمالية البحث ، غير أن التجربة المستمرة كشفت عن أشياء جديدة جعلت كل ما كان يقال من قبل فاسدا وخاصة فيما يتعلق بالطاقة والمادة فقد اثبت العلم أن الطاقة تتحول الى مادة وأن المادة تتحول الى طاقة وبذلك انهدم أساس الفكر المادى وتحطم كثير من القواعد التى تقوم عليها الفلسفات المادية .

ولكن دعاء هذه المذاهب انما يهدفون الى هدم المجتمع البشرى باحلال روح الفساد فيه واسقاط الارادة ووضع مسئولية الخطأ والانحراف على المجتمعات ، واعلاء شأن المفهوم الجمعى للقضاء على الفردية التى هى مناط المسئولية

والجزاء فى الدين الحق ، وذلك من شأنه أن يدفع الى مزيد من غلبة الشهوات وتبرير الفساد وسقوط المجتمعات وهو ما تهدف اليه اليهودية التلمودية فيما أشارت اليه فى بروتوكولات صهيون .

وعندما نراجع أصول الجبرية فى الفكر الاسلامى نجد أن مصدرها يهودى فهو مما قال به الذين حملوا سموم الفكر البشرى القديم والفرنسيون يقولون أن الانسان ليس ارادة ولا اختيارا ولا تأثيرا ولا جزءا كسبيا ولذا لا يروونه جديرا بالمدح ولا بالذم ، أما اليهود الفروثسيم فقد بالغوا بالاختيار وراوا الانسان غادرا على مطلق عمل دون أمر الله ونهيه . وكلا الأمرين الجبر المطلق والاختيار المطلق لا يقرهما الاسلام . وفى الفلسفات الهندية والصينية والفارسية جبرية واضحة إذ أن البرهمية والبوذية والمزدكية تبرره ، كذلك الفلسفة اليونانية فان حرب طروادة قد حملت سواد الناس على التسليم المطلق بالجبر ، وكذلك فلسفات التقمص والتناسخ كلها مفضية الى الجبرية .

وكذلك تحمل فكرة وحدة الوجود معنى الجبر فهى تلغى الارادة والمسئولية الفردية وصدق فى هذا قول القائل :  
ان الاختيار المطلق يكلف الانسان فوق الطاقة والجبر المطلق محو للتكليف وهدم للشريعة وابطال لحكم العقل وانكار للواقع .

والاسلام لا جبر فيه ولقد نادى القرآن بالتخير : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، واخذ الرسول بيد طلاب

الهداية لربهم ، ودعا الاسلام الى الارادة : والصبر وعزائم الأمور ، ودعا الى تغيير الواقع الفاسد ودعا الى الهجرة فى الأرض حتى لا يظلم الانسان نفسه بالبقاء فى الواقع السلبى .

ولقد اقام الاسلام الاختيار ونادى به القرآن (( فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه )) .

وقال ابن تيمية : ان للعبد قدرة ومشئئة وعملا فهو مختار مريد . والجبريون هم المعطلون للتكاليف الشرعية المسفهوم للخطابات الالهية . وقال النابلسى انهم زنادقة هذه الأمة .

ولقد فتح الاسلام الباب واسعا أمام الذين ينحرفون الى الجبر مع قدرتهم على الحرية والاختيار وفتح لهم باب العودة الى الارادة الصحيحة .

ورسل الله ودعاة الحق فى كل جيل وعصر لم يأمرؤا بالانحراف ، ودعوا الى الارادة والاختيار التى تنشأ عنها المسئولية والجزاء ، ولكن المنحرفين من أصحاب الفكر البشرى هم الذين زينوا للناس الحلول والاشراق والتجسد وغيرها من المفاهيم الباطلة الباطلة التى تدعو الى الجبرية ثم جاء الفكر الفلسفى المادى المعاصر فاحتوى كل هذه العناصر وأعاد صياغتها من جديد .

ومن عجب أن العلم بالتجارب العديدة لم يعد يعبر نظرية الحتمية : التى كان يقوم عليها كيانه فأصبح حين تتوافر الشروط والأسباب يحكم بوقوع النتائج وذلك لأنه وجد

عشرات من الأشياء لا تخضع لهذا القانون ، ومن ثم فان العلماء الآن يقررون أن الحتمية فى العلم غير ضرورية وأن القانون الذى يحكم العلم هو قانون الاحتمالات وبذلك انفسح لهم المجال للايمان بقوة عليا تفسر العالم خارج نفسه .

ولكن رجال الفلسفة المادية ، وهم اليهود التلموديون اصحاب بروتوكولات صهيون انما يريدون أن يتجاهلوا حقائق الفطرة وآراء العلم وطبيعة الدين الحق ، ليفرضوا على البشرية نظرية زائفة يراد بها تدمير المجتمعات : تلك هى الجبرية والحتمية .

ولقد صدق القائل : ان الانسان لا تجوز عليه الحتمية لأن الناس ليسوا كرات بليارد تتحرك بحتمية قوانين فزيائية ولكنها مجموعة ارادات حرة تدخل فى علاقات متعددة يستحيل فيها التنبؤ القائم على قوانين مادية ، كذلك فان القوانين الاحصائية هى قوانين اجمالية وكلها ترجيحات ولا يرتفع أحدها الى مرتبة الحتمية على الإطلاق .



## فساد نظرية (( تنازع البقاء ))

ومن الفرضيات التى قدمها العلم تحت التجربة نظرية « تنازع البقاء » وقد تعالى القول بهذه النظرية وامند حتى خيل للناس أن هناك قانونا يطلق عليه تنازع البقاء وفى أفق الفكر الاسلامى والثقافة العربية ردد الباحثون هذا المصطلح سنوات وسنوات ، وتبين من بعد أنه لا توجد حقيقة علمية تسمى تنازع البقاء ، وأن كل ما يقال عن التنازع أو الصراع ليس من طبيعة العلاقات بين الأحياء .

لقد جاءت فرضية التنازع نتيجة لتقدير ماذى بأن انتاج الطعام فى العالم محدود بينما التوالد يتضاعف ويزداد ، ومن هنا فلا بد أن يتنازع الأفراد لأجل البقاء أو من أجل الحصول على الطعام ، ولكن نظرية انتاج الطعام المحدود التى قال بها « مالتوس » ثبت بطلانها من بعد فقد اكتشفت آفاق عديدة للموارد والرزق ونما العالم وتضاعف عشرات المرات دون أن يفقد القوت وهذا عيب النظريات التى تكون دائما محدودة بقدر معين من العلم فى عصرها وبالتحدى الخاص ببيئتها وبالتأثر بنظرية جزئية أخرى ، نجد هذا تماما عند دارون ونجده عند ماركس ونجده عند فرويد .

وقد حاول أنصار دارون تبرير موقفه ودافعوا عنه فقالوا أنه استمد نظرية تنازع البقاء في الطبيعة من اقامته في لانكشير وغيرها من الأقاليم الصناعية وكانت نظرية دارون في مجموعها — وهى نظرية بيولوجية — مما استخدمه الفكر السياسى الاستعماري خاصة فيما يتعلق بتنازع البقاء وبقاء الأصلح فقد طبقوها على الشعوب المستعمرة والقوى الاستعمارية المسيطرة عليها وجعلوا منها مبررا لسيطرة المستعمرين .

فشلت نظرية دارون في تنازع البقاء وبقاء الأصلح ونبين للباحثين والعلماء أن هناك « تعاونا » بين الأنواع أكبر من التنازع ، وهناك تلاقيا أقوى من الصراع وفي هذا يقول أحد الباحثين : أن عواطفه الاجتماعية التى اكتسبها من المزاومة الصناعية في لانكشير ومن كفاح الامبراطورية البريطانية لخطف الأسواق واذلال الأمم هذه العواطف حملته على أن يكبر من شأن التنازع : تنازع البقاء . وحال هذا بينه وبين رؤية التعاون في الطبيعة ، لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع .

وكما سقطت نظرية التطور كما أرادها الفلاسفة الاجتماعيون ، وسقطت نظرية مالتوس في الوراثة ، كذلك سقطت نظرية « تنازع البقاء والفكر الاسلامى واضح في هذا تمام الوضوح فهو يقر مفهوم التلاقى والتعاون والتكامل بين قوى الطبيعة المختلفة ، ويرى أن هذا الالتقاء هو دافعها الى الحركة والقوة والنماء » .

ويرى الفكر الاسلامى ضرورة التعاون فى المجتمع  
الانسانى بجميع افراده ، القوى والضعيف ، والغنى والفقير ،  
والمرضى والصحيح ، ويحمل الاسلام الأقوياء والأغنياء  
والأصحاء مسئولية باقى أفراد المجتمع بنظام كامل من أنظمة  
الاعاشة والانفاق والبذل .

ويرفض الاسلام تماما فكرة القضاء على الضعفاء  
أو انفقراء أو المرضى ويرأها عاملا من عوامل الخروج  
عن الايمان « **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** » وإذا كانت  
نظرية تنازع البقاء قد بدأت فى مجال العلم الطبيعى فان علماء  
الاجتماع أرادوا أن يجعلوها قانونا عاما للبشرية ولكنهم  
فشلوا فى ذلك وتبين من التجارب المتعددة قيام التعاون بديلا  
عن التنازع .

ومن هنا كان زيف كل التفسيرات التى حاول بعض  
الماديين القاءها شأن المواقع التاريخية واندثار الحضارات  
وانقراض الأمم .

ومن الحق أن الصراع لم يكن هو مصدر انهيار الحضارات  
أو انقراض الأمم وإنما كان الفساد والانحراف والاستعلاء  
والترف والتحلل والخروج عن نظام الكون وقوانينه الطبيعية  
التي تفرض العمل والارادة وبذل الجهد والاستمساك  
بالخشونة فى الحياة والحفاظ على الضوابط والحدود .

ومما ينقض نظرية تنازع البقاء أن الحيوانات الوائنة  
الضعيفة تعيش وتنمو . وفق قانون التكيف مع البيئة  
الذى هو أصدق من قانون تنازع البقاء ، ذلك أن كل كائن

يستطيع أن يحتاط ويتكيف مع الظروف إذا كانت هذه من الطبيعة كالبرد والحر أو من مقاومة الأعداء .

ويصدق قانون التكيف مع البيئة بينما تفشل نظرية « تنازع البقاء » ويؤكد الباحثون أن فساد نظرية تنازع البقاء ترجع أساسا الى أنها تعارض الطبيعة والفطرة وتكشف عن تحد واضح لانطلاقة الحياة في صورتها السليمة . فهي تؤدي الى حرمان الضعفاء من حق الحياة وتشجيع الأقوياء على التسلط والسيطرة ، وتبيح الحرب وتعتبرها ضرورة في يد القوى لاهلاك الضعيف .

ولما كان من طبيعة القوى أن يسيطر على الأضعف فقد دعا الاسلام الى أن يتمسك أهله بالقوة في مواجهة كل من يحاول الاعتداء عليهم ، وكذلك دعا الأفراد الى الهجرة من الأرض التي يقع فيها الازلال لهم حتى لا يكون المسلمون موضع سيطرة من غيرهم أو تسلط من عدوهم .

والحق دائما يثبت والباطل دائما يرتفع ثم يهزم لأنه لا يستطيع أن يواجه ثبات الحق وسلامته وقدرته على الانتصار والبقاء . وعلى أهل الحق أن يلتمسوا نصر الله بالاستعداد لمعارضة الباطل ومقاومته .

ويقر الاسلام نظام « التعاون » بديلا لمفهوم « التنازع » ومن هنا فان الأنظمة التي تقوم على الصراع لابد أن تسقط لأنها تمثل اتجاها مضادا للحق والخير ، الذي هو الناموس الطبيعي للحياة . ومن شأن « الفطرة » التي فطر الله عليها الكون والناس أن تمكن للحق من هزيمة الباطل والادالة له ،

ومن شأن أهل الحق أن يكونوا في يقظة حتى لا يستثري الباطل ويكسب الجولة عليهم ، فإذا فقدوا مقومات عقيدتهم ، تغلب الباطل عليهم لا محالة ، فكان حقا عليهم أن يعودوا الى التماس مقومات عقيدتهم ويتجمعوا لها ، ومهما كانوا قلة فان تمسكهم بالحق مع معونة الله يحتم تحقيق النصر لهم ، وهذا هو مفهوم دفع الله الناس بعضهم ببعض ، وهو معنى يختلف عن النظرية الغربية « تنازع البقاء » .

ويجمع الباحثون على أن « الصراع » فكرة استعمارية نشأت في ظل الفكر الغربى الاستعماري الذي اعتمد على القوة كوسيلة للسيطرة على الضعيف على النحو الذي سارت عليه عمليات الاستعمار والاحتلال والحروب الاستعمارية ، تبريرا للاستيلاء على موارد الغير وممتلكاته بالقوة والعنف . ولقد رحب الماديون بفكرة دارون لأن عقيدتهم تقوم على العنف وصراع الطبقات .

اما القرآن فقد ذكر أن « الصلاح » هو سبب بقاء الأمم والحضارات في الدنيا وهو عدة الضعفاء المتقين في التغلب على الأقوياء المنحرفين .



ولاريب أن من أخطر ما تروج له الفلسفات الغربية كلمة « الطبيعة » حيث ينسب إليها العطاء والمنع والكشوف والقوانين ، ولا ريب أن هذا معارض تماما لمفهوم الدين الحق فان الخالق هو الله وليس الطبيعة ، والطبيعة مخلوقة لله ، مذلة له سبحانه . أما كلمة الطبيعة في مفهوم العلم فهي عبارة عن قوانين سقوط الأجسام ودورانها ومغناطيسيتها وهي قوانين تعبر عن قدرة الله في خلق الكون والانسان وليس في الاسلام صراع بين الله والطبيعة فالكل يسلم ويسجد طوعا وكرها .

وكل ما كشفه العلم الحديث ليس الا قشورا صغيرة من علم الله الأكبر ، وما استطاع العلم أن يصل الى تفسير ظواهر الأشياء . ومن أخطر مقاتل العلم الحديث أنه فصل بين المادى والروحى في العلم وانكر الروحى ، يقول الكسى كاريل : ان الغلطة المسئولة عما نعانیه أنها جاءت من فكرة لجاليليو فقد فصل جاليليو بين الصفات الأولية للأشياء وهى الأبعاد والأوزان التى يمكن قياسها بسهولة عن صفاتها الثانوية وهى الشكل واللون والرائحة التى لا يمكن قياسها فقد فصل الكم عن النوع ( الكيف ) ولقد جلب الكم المعبر عنه باللغة الحسابية والعلم ، بينما أهمل الكيف . لقد كان تجريد الأشياء عن صفاتها الأولية أمرا مشروعاً ولكن التغاضى عن الصفات الثانوية لم يكن كذلك فالأشياء

غير القابلة للقياس فى الانسان اكتر اهمية من تلك التى يمكن قياسها فوجود التفكير هام جدا مثل التعادل الطبيعى الكيمائى لمصل الدم ، ولما اتخذت التركيبات العضوية والألباب الفسيولوجية حقيقة أكبر كثيرا من التفكير والسرور والحزن ، والجهل ، دفعت هذه الغلطة الحضارة الى سلوك طريق أدى الى فوز العلم والانحلال الانسانى ، ولابد أن يعيد الانسان صياغة نفسه وان الخطأ الذى بدأ به كان أنه أعلى شأن الكم على الكيف ، هذا الخلل المروع فى بناء الحضارة ، الانسان الذى حقق تسخير المادة واطلاق الطاقة لا يزال اقرب الى الغابة فى العقل والتدبير ذلك أن الدين هو الحماية : هو الحائط العريض الحاجز عن الخطر ، هو انسان الانسان الذى ينقله من الغابة . » .

ومن هذا المنطلق وقع المحذور ، وتوالت الأخطاء ، واندحر الانسان الذى تمزق فى الغرب .



## دارالعلوم للطباعة

القاهرة ٨٠ شارع صبين مجارى (الضر العيني)

ت ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٩/١٤٥٠  
الترقيم الدولى ٢ - ٣٣ - ٧٣١٨ - ٩٧٧